سورةُ الحديدِ ـ دراسةٌ أسلوبية

Al-Hadid Surat- A stylistic study .

أ . م . د . مرتضى عبد النبي علي الشاوي
كلية التربية القرنة / جامعة البصرة

Dr. Mourtada Abdul Nabi Ali Shawi
College of Education / University of Basra.

كلمات مفتاحية : الجملة المؤكدة / أدوات التأكيد / الأسلوب الإنشائي/ التقديم والتأخير / النداء / القصر / علم المعاني / التصوير الفني / أسلوب الحذف

murtathaalshawi@yahoo.com

ملخص البحث

يسلطُ هذا البحثُ الضوء وبدراسة أسلوبية في سورة الحديد بشكل خاص فقد فتح لنا هذا البحث آفاقاً واسعة في تأمّل آيات البارئ عزّ وجلّ وفهم الأسلوب القرآني المعجز الذي فاق كلّ أسلوب وكان لابد لنا من استخلاص أهم النتائج وكانت كالآتي إنّ الصورة القرآنية تمارس أثراً نفسياً ضاغطاً وفعّالاً على المتلقي ، فالقصد منها توجيهه الوجهة الصحيحة التي أراد الله تعالى له ، فهي وسيلة مهمة وفعّالة من وسائل الإفهام التي سعى الحق تعالى عن طريقها إلى هداية عباده وتقريبهم من الجنة ونعيمها وابعادهم من الجحيم وعذابها ، والله من وراء القصد

Abstract

This research sheds light with a stylistic study in Surat Al-Hadid in particular. This research opened wide prospects in meditation of God's ayat and understanding the Quran prodigy style that overtop each style. It was so necessary to conclude the most important results، and it was that the Quranic image has an active psychological effect which compress the recipient It is an important and effective means of understanding by which the right Almighty sought to guide His slaves and bring them closer to heaven and bless them and remove them from hell and torment.
God is intended.

المقدمة

الحمدُ لله ربّ العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين .

أما بعد ... فهذا البحثُ الموسوم (سورة الحديد دراسة أسلوبية) ، يحاول أن يسلّط الضوء على أبرز الأساليب التي وردت في هذه السورة ، ومنها : الأسلوب البلاغي ، والأسلوب الحواري ، وغيرها من الأساليب القرآنية .

أمّا بالنسبة لخطة البحث فكانت مقسّمة إلى ثمانية مباحث :

فالمبحث الأول بعنوان : الأسلوب الخبري ، والمبحث الثاني بعنوان : الأسلوب الإنشائي ، والمبحث الثالث بعنوان : أسلوب التقديم والتأخير ، والمبحث الرابع بعنوان : أسلوب القصر ، والمبحث الخامس بعنوان : أسلوب التكرار ، والمبحث السادس بعنوان: أسلوب الحذف ، والمبحث السابع بعنوان : أسلوب التصوير الفني الذي يشتمل على فنون بلاغية وهي (التشبيه والاستعارة والكناية) ، والمبحث الثامن بعنوان : لغة الحوار .

المبحث الأول :ـ الأسلوب الخبري

الخبر: هو ما يحتمل الصدق والكذب لذاته ، وإن شئت فقل : الخبر هو ما يتحقق مدلوله ، في الخارج بدون النطق به ، نحو : العلمُ نافعٌ ، فقد أثبتنا صفة النفع للعلم ، ((وتلك الصفة ثابتة له (سواء تلفظت بالجملة السابقة أم لم تتلفظ) ، لأنّ نفع العلم ، أمر حاصل في الحقيقة والواقع ، وإنما أنت تحكي ما اتفق عليه الناس قاطبة ، وقضيت به الشرائع ، وهدت به العقول بدون النظر إلى اثبات جديد . والمراد بصدق الخبر مطابقته للواقع ونفس الأمر ، فالمراد بكذبه عدم مطابقته الواقع)) [١]

أمّا الأغراض التي من أجلها يأتي الخبر فهي :

١- ((إمّا افادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة ، إذا كان جاهلاً له ، ويسمى ذلك ((فائدة الخبر)) .

٢- وإمّا إفادة المخاطب أنّ المتكلم عالم أيضاً بالحكم الذي يعلمه المخاطب ... ، ويسمّى بذلك الحكم ((لازم الفائدة)))) [٢]

بقي أن نعلم أنّ الجملة تكون مثبتة أو منفية أو مؤكدة، وسنتحدث عن كل منهم بالتفصيل :

أولاً : الجملة المثبتة :

وهي الجملة التي تخلو من أحرف أو أدوات التوكيد ، أو أدوات النفي ، فهي مثبتة ، وتقسم إلى جملة فعلية وجملة اسمية ، فالجملة الخبرية المثبتة بصورة عامة هي الأكثر وروداً في سورة الحديد ، وسنبدأ بالجملة الاسمية المثبتة، فالجملة الاسمية تفيد ـــ بأصل وضعها ـــ ثبوت شيء لشيء ليس غير ، بدون النظر إلى تجدد ولا استمرار .

وقد تخرج الجملة الاسمية عن هذا الأصل وتفيد الدوام والاستمرار بحسب القرائن ، كأن يكون الحديث في مقام المدح ، أو في معرض الذم ، وغيرها من الأساليب [٣] .

وجاءت الجملة الاسمية في سورة الحديد على أنماط مختلفة كما يأتي :

النمط الأول : [المبتدأ معرفة والخبر معرفة] وهو في قوله تعالى : ﴿ هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ ﴾ [الحديد :٣]

ففي الآية المباركة جاء المبتدأ معرفة وهو ضمير الرفع (هو) ، والخبر معرفة ، وهو (الأول) . وقد تنوعت صور المبتدأ في هذا النمط ما بين ضمير، نحو ما ذكرناه : ((هو الأولُ والآخرُ)) ، وكذلك قوله تعالى :

﴿ هي مولاكُم وبئسَ المصير ﴾ [الحديد : ١٥]

وما بين اسم الإشارة ،نحو :﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [الحديد : ١٢]

﴿ ذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ ﴾ [الحديد : ٢١]

﴿ أولئك هُمُ الصديقون ﴾ [الحديد : ١٩]
﴿ أولئكَ أصحابُ الجحيم ﴾ [الحديد: ١٩]
وهناك أمثلة أخرى كثيرة كما في قوله تعالى :
﴿ مأواكُمُ النارُ هي مأواكم ﴾ [الحديد :١٥]
أمّا النمط الثاني : [المبتدأ معرفة والخبر جملة اسمية] ، وهو في قوله تعالى : ﴿ وهَو الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ ﴾ [الحديد : ٤]
فالمبتدأ معرفة وهو ضمير الرفع (هو) ، والخبر جملة اسمية تبدأ بالاسم الموصول (الذي) ، وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وهو الذي ينزل على عبدِهِ آياتٍ بيناتٍ ﴾ [الحديد :٩] أمّا النمط الثالث : [المبتدأ نكرة ، والخبر شبه جملة] : وذلك في قوله تعالى :
﴿ ولَهُم أجرٌ كريم ﴾ [الحديد : ١١]
﴿ وفي الآخرةِ عذابٌ شديد ﴾ [الحديد :٢٠]
﴿ فيه بأسٌ شديد ﴾ [الحديد : ٢٥]
ففي جميع الحالات التي تقدّم ذكرها نلاحظ أنّ المبتدأ مؤخر ، وهو نكرة ، والخبر مقدّم ، وهو شبه جملة .
أمّا النمط الرابع : [المبتدأ معرفة والخبر نكرة] : وهو في قوله تعالى : ﴿ بُشراكُمُ اليومَ جناتٌ ﴾ [الحديد :١٢]
حيث جاء المبتدأ معرفة (بُشراكُمُ) ، معرف بالإضافة ، والخبر نكرة (جناتٌ) . وقوله تعالى ﴿ أولئكَ أعظمُ درجةٍ ﴾ [الحديد :٩]
أمّا النمط الأخير : [المبتدأ نكرة والخبر نكرة] : وذلك في قوله تعالى : ﴿ وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾ [الحديد :١٢]
فالمبتدأ (كثيرٌ) ، وهو نكرة ، أمّا الخبر (فاسقون) نكرة أيضاً . ولو تأمّلنا وتدبّرنا السورة الكريمة لوجدنا مواضع أخرى كثيرة للجملة الاسمية ، منها قوله تعالى : ﴿ باطنُهُ فيهِ الرحمةُ ﴾ [الحديد :١٣]
((وظاهرُهُ من قِبلِهِ العذابُ)) [الحديد :١٣]
- أمّا الجملة الفعلية المثبتة ، فعند قراءتنا للسورة المباركة نلاحظ أنّ الأفعال الماضية والمضارعة متقاربة من حيث عدد المرات التي وردت كل منهما فيها ؛ وذلك لأنّ السورة تقرّر أموراً ثابتة ، وحقائق كونية واقعة ، وحقائق أخرى سوف تقع ، فهي تتناول في بدايتها موضوع التسبيح والتمجيد لله سبحانه وتعالى ، وبيان صفاته وقدراته ، وعلمه وصنعه وإحاطته بكل ما في الكون من أمور بشكل عام . ويبدو أن ذكر التسبيح والتمجيد إنّما هو مقدمة للأهداف الأخرى الواردة في السورة وهي : أهمية الإيمان والإنفاق ، والترابط الموجود بينهما ، ثم قضية الأموال والأولاد والزينة ، ثم المهمات الرئيسية التي استهدفها الرسل ، وإنزال الكتب ، فهي تتلخص في دعوة الإنسان إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى إيماناً يصعد به إلى درجة الصديقين والشهداء [٤].
- وقد ابتدأت السورة الشريفة بجملة خبرية مثبتة فعلها ماضٍ ، وهو قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ للهِ ما في السمواتِ والأرضَ وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحديد :١]
فهذه هي الحقيقة الكبرى في الدنيا ، وهي أنّ كلَّ من في السموات والأرض يسبّحون لله تعالى ، وتسبيح الله تعالى هو تمجيده وتنزيهه عن أيّ نقص فهو صاحب الكمال كلّه ، وهو خالق الخلق كلّه ، فلا يشبهه أحد من خلقه ، وكلهم يعبدونه ويسبّحونه ليلاً ونهاراً . وهناك آيات أخرى ورد فيها الفعل الماضي المثبت في سورة الحديد الكريمة ، قال تعالى :
﴿ وكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسنى ﴾ [الحديد :١٠]
﴿ قالوا بلى ولكِنكُم فتنتُم أنفسَكُم ﴾ [الحديد :١٤]
﴿ وغَرَّكم باللهِ الغرور ﴾ [الحديد : ١٤]
﴿ هو الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ ﴾ [الحديد :٤]
﴿ فالذينَ آمنوا منكم وأنفقوا ﴾ [الحديد :٧]
﴿ مَن أنفقَ من قبلِ الفتح وقاتلَ ﴾ [الحديد :١٠]
﴿ الذينَ أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴾ [الحديد :١٠]
﴿ والذين كفروا وكذّبوا بآياتِنا أولئكَ أصحابُ الجحيم ﴾ [الحديد :٩]

ولكلّ منها دلالة ما ، حسب المناسبة التي قيلت فيها أو التي قيلت لأجلها ، فمثلاً في الآية الأولى : ﴿ هو الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ ﴾ . تذكر الآية الشريفة خلق الله السموات والأرض ، بعد أن تقدمّ في الآية التي قبلها أنّ له ملك السموات والأرض: ﴿ له ملكُ السمواتِ والأرضِ ﴾ [الحديد :٢] ولا شك أنّ مبدأ الملك بالنسبة إلى السنوات والأرض هو خلقها ؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى بخلقه للسموات والأرض أصبح مالكاً لها ، ثم تطرّق القرآن الكريم إلى موضوع جاء ذكره في ستة مواضع من الكتاب العزيز ، وهو خلق السموات والأرض في ستة أيام .[٥]

وفي مواضع أخرى نلاحظ أنّ بعض الأفعال المضارعة عدل عنها إلى الماضي للدلالة على تحقيق الوقوع نحو قوله تعالى : ﴿ يومَ يقولُ المنافقونَ والمنافقاتُ للذينَ آمنوا انظرونا نقتبس من نورِكُم قيلَ ارجعوا وراءكم ...﴾ [الحديد :١٣] فالفعل (قيل) مبني للمجهول (ماضٍ) ، فهو بالنسبة للمتلقي ماضٍ ، ولكنه واقع لا محالة في المستقبل ، ولهذا جاء بصيغة الماضي ؛ لأنّ ما سيقع لا محالة هو في حكم الواقع فعلاً . وكذا الحال بالنسبة لقوله تعالى : ﴿ فضُرِبَ بينهُم بسورٍ لهُ بابٌ ﴾ [الحديد :١٣] ﴿ ولا يكونوا كالذينَ أُوتوا الكتابَ من قبلِ ... ﴾ [الحديد :١٦]

﴿ وجنةٌ عَرْضها كعرضِ السماءِ والأرضِ أُعِدَت للذينَ آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ ﴾ [الحديد :٢١]

ففي جميع الأحوال مبنية للمجهول (ضُرِبَ ، أُتوا ، أُعدّتْ) ؛لأنّ لها دلالة الماضي والاستقبال . وهناك أفعال ماضية أخرى وردت في السورة المباركة منها : ﴿ وقفينا بعيسى ابن مريمَ ﴾ [الحديد : ٢٧] ﴿ وجعلنا في قلوبِ الذين اتبعوهُ رأفةً ورحمة ﴾ [الحديد : ٢٧]

أمّا الفعل المضارع المثبت فهو في قوله تعالى : ﴿يحيي ويُميتُ وهُوَ على كلِّ شيءٍ قدير ﴾[الحديد:٢] ﴿ يولِجُ الليلَ في النهارِ ويولِجُ النهارَ في الليلِ ﴾ [الحديد :٦]

﴿ يعلمُ ما يلجُ في الأرضِ ﴾ [الحديد :٤]

فالأفعال المضارعة جاءت مثبتة ، غير مؤكدة ، ولا منفية بأيّ أداة من أدوات النفي أو التوكيد .

وقد قال السيد قطب إنّ في قوله تعالى : ﴿ يعلمُ ما يلجُ في الأرضِ ﴾ : ((وفي كل لحظة يلج في الأرض ما لا عداد له ولا حصر من شتى أنواع الأحياء والأشياء ، ويخرج منه ما لا عداد ولا حصر لها من خلائق لا يعلمها إلاّ الله . وفي كل لحظة ينزل من السماء من الأمطار والأشعة والنيازك والشهب ، والملائكة ، والأقدار ، والأسرار ، ... والنص القصي يشير إلى هذه الحركة الدائمة التي لا تنقطع ، وإلى هذه الأحداث الضخام التي لا تحصى))[٦]

وهناك آيات أخر ورد فيها الفعل المضارع المثبت في سورة الحديد فذكر منها :

﴿ هو الذي يُنزلُ على عبدِهِ آياتٍ بيناتٍ ﴾ [الحديد :٩] ﴿ يومَ ترى المؤمنين والمؤمناتِ يسعى نورُهم بين أيديهِم ﴾ [الحديد :١٢]

ثانياً : الجملة المنفية : -

يعدّ النفي من أقسام الخبر المهمة ، وفي ذلك يقول السيوطي : ((من أقسام الخبر النفي ، بل هو شطر الكلام كلّه))[٧] . فقد وصف النفي بـ (شطر الكلام كلّه) ، والشطر في اللغة هو نصف الشيء ، وفي ذلك دلالة على أهمية هذا الأسلوب ، وكثرة وروده في لغة العرب بشكل عام ، وفي القرآن الكريم بشكل خاص . ((فقد ظهر بشكل واسع في النصوص القرآنية ، إذ كان من الأساليب المهيمنة ، وإنّ نظرة فاحصة إلى أدواته المتمظهرة في النصوص القرآنية ، وعددها

لكفيل بأن يؤكد ما نقول ، فقد ظهرت هذه الأدوات حسب كثرتها : (لا) ظهرت بنوعيها المشبهة بـ (ليس) غير العاملة ، و(لا) النافية للجنس ، وهي تفيد التنصيص على نفي الجنس)) [٨]

أمّا الأدوات الأخر فهي : ما ، لم ، ليس ، غير ، إنْ ، لَنْ ، لاتَ ، لمَّا) .

((قامت (لا) بنفي الفعال المضارع أكثر من قيامها بنفي الاسم ، وفي ذلك دلالة على كون الحدث هو القابل للتغيير مع استمرار الزمن ، وقد كثر وجودها في نصوص الترهيب ؛ لبيان عاقبة الكافرين السيئة التي سيلقونها)) [٩]

ومن أمثلة (لا) النافية الداخلة على الفعل المضارع في سورة الحديد قوله تعالى : ﴿ ومالكم لا تؤمِنونَ باللهِ والرسولُ يدعوكُم لِتؤمنوا بربكُم ﴾ [الحديد :٨]

﴿ ومالكم أن لا تنفقوا في سبيلِ اللهِ ولله ميراثُ السمواتِ والأرضِ لا يستوي منكم من أنفق منْ قبلِ الفتح وقاتلَ ﴾ [الحديد :١٠]

﴿ فاليومَ لا يُؤخَذُ منكم فديةٌ ولا من الذينَ كفروا ﴾ [الحديد :١٥]

﴿ لكيلا تأسَوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم واللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مختالٍ فخور﴾ [الحديد : ٢٣]

﴿ لِئلا يَعلَمَ أهلُ الكتابِ ألا يقدرون على شيءٍ ﴾ [الحديد :٢٩]

ففي الآيات الكريمة نفي بـ (لا) للفعال المضارعة ، ونلاحظ أنّ النفي أفاد الاستقبال ؛ لأنّ الأفعال المضارعة أشارت إلى المستقبل ، فضلاً عن دلالتها على التجدد والحدوث والاستمرار .

ونلاحظ أنّها دخلت في الآية الأولى على جملة فيها معنى الترغيب ﴿ ومالكم لا تؤمنون باللهِ ﴾ [الحديد :٨] إذاً فقد أفادت الترغيب ، ويقصد به ترغيب الكفار للإيمان بالله عزّ وجلّ ، وفي الآية الثانية كذلك ترغيب لهم على الإنفاق في سبيل الله : ((ومالكم أن لا تنفقوا في سبيلِ الله)) ،في حين في النص الآخر جاءت لإفادة معنى الترهيب في قوله تعالى : ﴿ فاليومُ لا يُؤخذُ منكُم فديةٌ ولا من الذينَ كفروا ﴾ ، وفي ذلك خسارة ما بعدها خسارة . من الوظائف المهمة التي قامت بها (لم) النافية هي وظيفة الاحتجاج على الناس عن طريق دخول همزة الاستفهام عليها ، إنّ الخالق أراد أن يحتجّ بقدرته على عباده ؛ علّهم يؤمنون به ، ويشكرون نعمته تعالى ، وقد استخدم في احتجاجه هذا أسلوبي الاستفهام والنفي ؛ ليكون الاحتجاج أشد وقعاً على المتلقي ، وليحقّق هدفه من التأثير فيه من خلال استنهاض مشاعره وأحاسيسه . [١٠]

ونلاحظ ذلك في قوله تعالى : ﴿ ألم يأنِ للذينَ آمنوا أن تخشع قلُوبُهم لذكرِ الله وما نزلَ من الحقِ ولا يكونوا كالذينَ أُوتوا الكتابَ من قبلُ فطال عليهم الأمدُ ﴾ [الحديد :١٦] . وهذا شكّل ظاهرة أسلوبية كان هدفها ترغيب المؤمنين وحثهم على الأعمال الصالحة ؛ لكيلا يواجهوا الخوف والحزن يوم الفزع الكبر . كذلك في قوله تعالى : ﴿ يُنادونهم ألم نَكُن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتُم أنفُسَكُم وتربصتُم وارتبتُم وغرَّتكُمُ الأماني حتى جاءَ أمرُ اللهِ وغرَّكُم باللهِ الغرور ﴾ [الحديد :١٤] حيث فيها تصوير لحالة المنافقين والمنافقات يوم القيامة ((يُنادونهم ألم نكن معكم)) فالخطاب الذي يستخدمه المنافقون في الدار الآخرة كانوا يستخدمونه في دار الدنيا عندما توجد منافع ومصالح وفتوحات للمسلمين . [١١] أمّا بالنسبة للأداة (ما) فقد كان لها دور في تصوير الأحداث أيضاً ، وأهم هذه الأحداث هو تصوير الماضي ، أو دخولها على الفعل الماضي كما في قوله تعالى :

﴿ ما أصابَ مِن مصيبةٌ في الأرضِ ولا في أنفُسِكم إلاّ في كتابٍ مِن قبلِ أن نَبرأها ﴾ [الحديد :٢٢]

﴿ ما كتبناها عليهم إلّا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ فما رعوها

حقَّ رعايتِها ﴾ [الحديد :٢٧] فقد دخلت على الأفعال الماضية (أصابَ ، كتبناها ، رعوها) ولكنها تحمل معنى المستقبل أيضاً . وأمّا دخولها على الجملة الاسمية فقد جاءت في موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿ وما الحياةُ الدنيا إلّا متاع الغرور ﴾ [الحديد :٢٠] وهذا هو الموضع الوحيد للجملة الاسمية المنفية في سورة الحديد .

ثالثاً : الجملة المؤكدة :ــ

الجملة المؤكدة : هي الجملة التي تأتي بأداة من أدوات التوكيد ، عندما يكون المخاطَب منكراً أو شاكاً ، حيث ذكر الدكتور فضل حسن عباس ((إذا كان الذي تخاطبه خالي الذهن ، لاتعرف منه إنكاراً ، ولا تجد في نفسه شكاً أو تردّداً فيما تلقيه إليه ، فينبغي أن تلقي إليه الخبر خالياً من التأكيد ، فتقول مثلاً : الدينُ المعاملة . أمّا إذا كنت تدرك من الذي تخاطبه شكاً ، فيحسن أن تؤكد له الخبر ؛ لتزيل ما بنفسه من شكّ ، فتقول له مثلاً : نتائج الامتحان ظهرت . أمّا إذا كنت تعرف أنّه منكر ، فيجب أن تؤكد له اللام على قدر ما تعرف من إنكاره .)) [١٢]

أمّا أدوات التوكيد فهي : إنّ ، ولام الابتداء ، وضمير الفصل ، والقسم ، وإمّا الشرطية ، وحرفا التنبيه (ألا وأما) ، والحروف الزائدة : (إن ، وأن ، وما ، ومن ، والباء ، وقد للتحقيق ، والسين وسوف الداخلتان على فعل دالّ على وعد أو وعيد) ، وتكرير النفي ، وإنّما ، ونونا التوكيد [١٣] .

١- إنَّ :هي الأصل في التوكيد ، ولها معاني يستفاد منها غير التوكيد ، وكثيراً ما استعملت في كتاب الله تعالى فبالنسبة لسورة الحديد فقد وردت في قوله تعالى :

﴿ إنَّ المصدقينَ والمصدِقاتِ وأقرضوا اللهَ قرضاً حسنا ﴾ [الحديد :١٨]

﴿ إنَّ ذلكَ على اللهِ يسير ﴾ [الحديد :٢٢]

﴿ فإنَّ اللهَ هو الغنيُ الحميد ﴾ [الحديد :٢٤]

﴿ إنَّ اللهَ قويٌ عزيز ﴾ [الحديد :٢٥]

وكثيراً ما تذكر معها لام الابتداء والقسم ، من مثل قوله تعالى : ﴿ وإنَّ الله بكم لرؤوفٌ رحيم ﴾ [الحديد:٩] ففي الآية الكريمة مؤكدان وهما (إنّ) واللام (للابتداء) وكان قصد الخالق تعالى من وجود مؤكدين في الآية هو لزيادة التأكيد ، حيث تتضمن الآية بيان رحمة الله ورأفته ، فهي تبيّن أنّ الله تعالى من صفاته الرأفة والرحمة ، وهنا قرنت الرأفة والرحمة تأكيداً على كون الهدف القرآني هدفاً فيه منفعة الناس ومصلحتهم . [١٤]

ومن الآيات التي أكدت بضمير الفصل (هو) قوله تعالى :

﴿ وهو على كلِّ شيءٍ قدير ﴾ [الحديد :٢]

﴿ وهو عليمٌ بذات الصدور ﴾ [الحديد :٦]

﴿ هُو الذي يُنزلُ على عبدِهِ آياتٍ بيناتٍ ﴾[الحديد :٩]

﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [الحديد:١٢]

﴿ فإنَّ اللهَ هُو الغنيُ الحميد ﴾ [الحديد :٢٤]

ومن الآيات التي تكرّر بها ضمير الفصل (هو) قوله تعالى: ﴿هوَ الأولُ والآخِرُ والظاهرُ والباطِنُ وهُو بُكلِ شيءٍ عليم ﴾ [الحديد :٣]

وقوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ ثمَّ استوى على العرشِ يعلمُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يَخرُجُ منها وما ينزلُ مِنَ السماءِ وما يعرجُ فيها وهو معكم أينما كُنتم ﴾ [الحديد :٤]

((فقد تكرّر الضمير (هو) مرتين في كلتا الآيتين ، وبذلك حمل جانباً دلالياً متنوعاً ، وتوكيداً متكرراً ، كان المقصود منه زيادة التوكيد)) [١٥] .

المبحث الثاني : الأسلوب الإنشائي

الأسلوب الإنشائي :هو مالا يحتمل الصدق أو الكذب لذاته ، فلا ينقل المتحدث به خبراً ، وإنما ينشئ به شيئاً معيناً غير حاصل وقت التكلم ، ولذلك لا يصح

أن يقال لقائله إنّه صادق فيه أو كاذب ، وقد عرّفها الدكتور حلمي علي مرزوق في كتابه (في فلسفة البلاغة العربية) : ((إمّا الإنشائية فلا تخبر عن شيء ولا تنسب شيئاً إلى أحد ، فطبيعي - إذاً - أن يسقط عنها الصدق والكذب ، فلا يقال فيها : صادقة أو كاذبة ، لأنّك لا تخبر وإنما تطلب شيئاً ، أو تطلب عمل شيء ، كالأمر أو النهي أو الاستفهام ، فأنت تأمر أو تنهى أو تسأل ، ولذلك سميت جملة إنشائية)) [١٦] وهي نوعان : إنشائية طلبية ، وأخرى غير طلبية . فالإنشائية الطلبية : هي التي تطالبك أن تنشئ شيئاً بالأمر أو النهي أو الاستفهام فليس واحد من ذلك إلاّ وأنت مطالب معه أن تفعل شيئاً ، فإن أمرتك بالجلوس جلست ، أو نهيتك عنه انتهيت أو سألتك عن الساعة أجبت ، من أجل ذلك سمّي بالإنشاء الطلبي[١٧] . وقد عرّف القزويني الإنشاء الطلبي بقوله : ((والطلب يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب)) [١٨]

وهو على أنواع هي :

١- أسلوب الأمر :وهو طلب الفعل على جهة الاستعلاء وله أربع صيغ :-

١- فعل الأمر : ﴿ وأقيموا الصلاةَ ﴾ [البقرة :١١٠]

٢- المصدر النائب عن الفعل : كقول النبي (صلى الله عليه وآله) : صبراً آل ياسر ، فموعدكم الجنة .

٣- المضارع المقترن بلام الأمر : مثل قوله تعالى : ﴿ لِيُنفِق ذو سعة من سَعَتِهِ ﴾

٤- اسم فعل الأمر : مثل : مه ! ، لا تقولنَ إحداكنَ فعلتُ كذا وكذا . [١٩]

ولم نتناول كلَّ هذه الأنواع ، وإنّما عرضنا لصيغ الأمر الواردة في سورة الحديد ، ولم نجد في السورة إلا صيغة واحدة وهي صيغة (فعل الأمر) ، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿ آمنوا باللهِ ورسولِهِ وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيهِ فالذينَ آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبير ﴾ [الحديد :٧]

الأمر في الآية في الفعلين (آمنوا وأنفقوا) ،(((آمنوا) في الآية التي هي للأمر معناها (صدقوا أنَ اللهَ واحدٌ وأنَ محمداً رسوله) . والأمر الآخر المتمثل في قوله تعالى : (وأنفقوا) ، (تصدّقوا) أو المراد الزكاة المفروضة ، ويبدو أنّ الأمر في آمنوا وأنفقوا إن كان يراد به المسلمون ، فهو يفيد الاستمرار والاستدامة على ما هم عليه وعليهم بالإنفاق وأمّا إذا كان لغير المسلمين فهي دعوتهم لدخول هذا الدين)) [٢٠] ومن صيغ الأمر أيضاً قوله تعالى : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم قيلَ ارجعوا وراءكُم فالتمسوا نوراً فضُرِبَ بينهم بسورٍ لهُ بابٌ باطنُهُ فيِ الرحمة وظاهرُهُ فيه العذاب ﴾ [الحديد :١٣]

فالأمر في الآية تمّثل في الأفعال (انظرونا ، وارجعوا ، والتمسوا) ، قال الزمخشري : ((أي ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً ، بتحصيل سببه ، وهو الإيمان أو ارجعوا تائبين وتنحّوا عنا فالتمسوا نوراً آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور)) [٢١]. ويلحظ على أن الآية اشتملت على أمرين بهذه الدلالة ، فقد عطف الثاني منهما على الأول بالفاء ، يدلّ على ذينك الفعلين بلا فاصل ، ويشعر الثاني منهما بالخيبة التامة ، إذ لا نور حين الرجوع إلى الوراء[٢٢]. .

٢ـ أسلوب النهي :

النهي: هو طلب الكف عن شيء، وأداته واحدة ،هي (لا الطلبية) وتسمى (لا الناهية) إن كان صادراً من أعلى إلى أدنى ، فإن كان من أدنى إلى أعلى سميت (لا الدعائية) وإن كان مساوياً لنظيره سميت (لا للالتماس) فتسميتها (لا الطلبية) أولى ، لأنّ طلب الكف يشمل حالاتها الثلاث[٢٣] . .

قال تعالى : ﴿ ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبُهُم لذِكرِ اللهِ وما نزلَ من الحقِ ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتابَ مِن قبلُ فطال عليهمُ الأمد فقَستْ قلوبُهُم وكثيرٌ

منهم فاسقون ﴾ [الحديد :١٦]
النهي في الآية يتمثّل في قوله تعالى : (ولا يكونوا) ، ويبدو أن النهي في الآية قد خرج عن معناه الظاهر إلى معنى آخر وهو التهديد بأن (لا يكونوا) كأهل الكتاب الذين لم يلتزموا بالتوراة والإنجيل[٢٤]
قال الحكيم (قدس سره) : إنّ في قوله تعالى :((﴿ ولا يكونوا كالذينَ أُوتوا الكتابَ ﴾ ، تشير إلى أوضاع أهل الكتاب ، وما أصابهم من قسوة القلب . فتذكر أنّ أهل الكتاب بالرغم من مجيء الأنبياء لهم ، ونزول الكتب والرسالات عليهم ، حتى أطلق عليهم أهل الكتاب ، حصلت عندهم قسوة القلب ، وتعلّل الآية الشريفة ذلك بطول الأمد)) [٢٥]
٣- أسلوب الاستفهام :
الاستفهام : هو طلب الفهم ((وهو استخبارك عن الشيء الذي لم يتقدّم لك علم به ، وبعضهم يفرّق بين الاستفهام والاستخبار ، وليس ذلك عناء في علم البلاغة ، أدواته إحدى عشرة أداة : حرفان : هما : (الهمزة) ، و(هل) ، وتسعة أسماء وهي : مَنْ ، ما ، متى ، أينَ ، إيانَ ، أنّى ، كيف ، كم ، وأي)) [٢٦]
والاستفهام في كلام العرب يستعمل للاستفهام عن أمر يجهله السائل وهو في التعريف طلب خبر ما ليس عندك ، أو هو طلب الفهم ، هذا من حيث الأصل ، أمّا من حيث المجاز فيكون لمعنى يقصده السائل كقول الوالد لولده : كم مرة قلت لك : لا تفعل هذا الفعل ؟ فالسؤال هنا لإيراد منه حقيقة الاستفهام بل يراد منه تقريع الولد وتوبيخه على معاودته الفعل المنهي عنه[٢٧]
فإذا انتقلنا إلى القرآن الكريم ' فإنّ الذي ينبغي أن يقال في هذا الصدد : أنّه سبحانه وتعالى لا يستفهم خلقه في شيء ، وإنما يستفهمهم ليذكّرهم أنّهم قد علموا حق ذلك الشيء ، وهذا أسلوب بديع انفرد به الخطاب القرآني.

وفي سورة الحديد مجموعة من الاستفهامات منها قوله تعالى :
﴿ ومالكم لا تؤمنونَ باللهِ والرسول يدعوكُم لتؤمنوا بربكُم وقد أخذَ ميثاقكم إن كُنتم مؤمنين ﴾ [الحديد :٨] الاستفهام في قوله تعالى : (ومالكم) ، استفهام إنكاري تعجبي ، بمعنى أي شيء استقرّ لكم من الثواب في الآخرة إذا لم تؤمنوا بالله وقد أخذ ميثاقكم؟[٢٨] . وقد ذهب ابن عاشور إلى ((أنّ هذا الاستفهام مستعمل في (التوبيخ والتعجب) ، وكان مستعملاً في الطلب (لا) في الدوام)) [٢٩]
وهذا الاستفهام يفيد الإعراض عن الإيمان ، وفي الوقت نفسه هو تعريض وتوبيخ وتعجّب كما ذهب ابن عاشور . ومن أمثلة الاستفهام الواردة قوله تعالى : ﴿ ومالكم ألا تنفقوا في سبيلِ اللهِ ولله ميراثُ السمواتِ والأرضِ ﴾ [الحديد :١٠]
(ومالكم) استفهام توبيخي أستعمل في التأنيب لعدم الإنفاق في سبيل الله ، ويقول النحاس عن هذا الاستفهام : ((وأي عذر لكم في أن لا تنفقوا في سبيل الله فحضّهم بهذا على الإنفاق)) [٣٠].
والاستفهام الوارد في الآية مقصود به التوبيخ على شيئين ، وهما : على ترك الإنفاق المأمور به بعد توبيخهم على ترك الإيمان بإنكار أن يكون لهم في ذلك أيضاً عذر من الأعذار ، والمعنى وأي شيء لكم في أن لا تنفقوا فيما هو قربة إلى الله تعالى[٣١] ومن الأمثلة قوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعفهُ لهُ ولهُ أجرٌ كريم ﴾ [الحديد :١١]
فالاستفهام في كلمة (من ذا) مستعمل في معنى التحريض والحث على إقراض الله سبحانه وتعالى قرضاً حسناً . وكذلك في قوله تعالى : ﴿ يُنادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتُم أنفُسَكُم وارتبتُم وغرَّتكم الأماني حتى جاء أمرُ الله ِ وغرَّكم بالله الغرور ﴾ [الحديد :١٤]

والاستفهام التقريري في (ألم نكُن معكم) ، وكذلك في قوله تعالى : ﴿ ألم يأنِ للذينَ آمنوا أن تخشَعَ قلوبُهُم لذِكرِ اللهِ وما نَزَلَ من الحق ولا يكونوا كالذينَ أُوتوا الكتابَ من قبلُ فطال عليهم الأمد فقستْ قلوبُهُم وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾ [الحديد :١٦] فالاستفهام في الآيتين يتمثّل في (ألم نكن معكم) و (ألم يأنِ للذين آمنوا)، بيد أنّ كلاً منهما جاء يخاطب أقواما ،فالأول استفهام جاء تقرير لقول المنافقين والمنافقات حينما يخاطب المؤمنين (ألم نكن معكم) ، بأسلوب الإنكار والتقرير والتوبيخ لهم حيث لا ينفع شيء بعد فولت الأوان . والاستفهام الآخر في (ألم يأنِ) للعصاة المؤمنين جاء بصورة الاستفهام التقريري ، ويبدو أنّ هذا الاستفهام خرج لمعنى الحث والتحضيض على الخشوع والعودة إلى ماأنزل الله (والله أعلم). وذكر السيد الحكيم (قدس سره) : أنّه جاء بصيغة العتب على المؤمنين لقساوة قلوبهم، حيث يبدو أنّهم في عصر الرسالة - من الناحية القلبية والنفسية والوجدانية - في معرض الخطر ، وأصبح حالهم حال أهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم ، وإذ تدعو المؤمنين بلسان الاستفهام الاستنكاري التأنيبي العتابي ؛ لتحقيق حالة خشوع القلب ، حيث إنّ كلمة(يأنِ) مأخوذة من أنّى . وتأتي بمعنى مجيء الوقت واقترابه ، و(ألم يأنِ للذين آمنوا) أي ألم يأت الوقت الذي تخشع فيه قلوب المؤمنين[٣٢]

٤- أسلوب النداء :

النداء : هو طلب إقبال المخاطب ، وإن شئت فقل دعوة المخاطب بحرف من أحرف النداء[٣٣] . ، وحروفه ثمانية ، للبعيد : (يا ، وأي ، وآ ،أيا ، وهيا)،

وللقريب : الهمزة ، نحو : (أزيدُ أقبلَ) [٣٤]

وهو طريقة من طرائق الخطاب بين المخاطِب والمخاطَب للتواصل والتقارب والتفاهم ، وقد اعتمده القرآن في توصيل رسالته للعالمين ، وتوضيح مقاصده التي ضمنها أحكامه وتشريعاته .أكثر ما ورد في القرآن للذين آمنوا ، حيث ورد النداء في تسعة وثمانين موضعاً كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذيَ آمنوا استعينوا بالصبرِ والصلاة ﴾ [البقرة :١٥٣]، ويأتي في الدرجة الثانية النداء لعموم الناس وذلك في عشرين موضعاً ، ثم النداء للرسول (صلى الله عليه وآله) ، ثم النداء للإنسان . وجاء النداء للكفار في موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿ يأيها الذينَ كفروا لا تعتذروا اليومَ ﴾ [التحريم :٧]. والغرض الرئيس من أسلوب النداء هو التنبيه والاهتمام بمضمون الخطاب ؛ لأنّ النداء يسترعي إسماع المنادين. وقد ورد النداء في سورة الحديد في موضع واحد في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا اتقوا اللهَ وآمنوا برُسولِهِ يؤتكِمُ كِفلَينِ من رحمَتِهِ ويجعل لكُم نوراً تَمشونَ بهِ ويغفر لكم واللهُ غفورٌ رحيم ﴾ [الحديد :٢٨] النداء يتمثل في (يا أيها) وهو خطاب يكون قد نزل بالمدينة ؛ لأنّه جاء بصيغة (يا أيها الذينَ آمنوا) ، وما كان بـ (يا أيها الناس)، فهو مكي ومدني وأكثره مكي[٣٥] . والخطاب موجّه للمؤمنين كما هو ظاهر قوله تعالى : ((يأيها الذينَ آمنوا)) ، وهذا التركيب عادة ما يستخدم في خطاب خصوص المسلمين من أتباع النبي المصطفى محمد (صلى الله عليه وآله) ، وقد جاء على لسان بعض المفسرين : إنّ الخطاب لأهل الكتاب بدعوى إنّ مقتضى السياق هو ذاك ، وإنّ الذين آمنوا هم الذين آمنوا من أهل الكتاب ، وهذا الاحتمال هو بعيد عن ظاهر الآية الشريفة ؛ لأنّ الأسلوب القرآني عند الحديث عن المسلمين وخطابهم استخدم مصطلح : ((يا أيها الذينَ آمنوا)) ، وكلما جاء الخطاب القرآني بهذا الشكل مطلقا دون قيد فهو موجّه للمؤمنين الذين آمنوا بالله سبحانه وتعالى[٣٦] .. وهنا أقبل لقوله

تعالى : ﴿ فآتينا الذينَ آمنوا منهم أجرهم ﴾ [الحديد :٢٧] أي من الذين اتبعوا عيسى (عليه السلام) .

المبحث الثالث :ـ أسلوب التقديم والتأخير

التقديم والتأخير :فن دقيق ورفيع ، لا يعرفه إلاّ أهل البصر بالتعبير ، والذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلام وأسرار تراكيبه ، ((فهو جعل اللفظ في رتبة قبل رتبته الأصلية أو بعدها لعارض اختصاص أو أهمية أو ضرورة ، وقد قال فيه عبد القاهر الجرجاني : (هو باب كثير الفوائد ، جمّ المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفه)) [٣٧]

وللتقديم والتأخير مقاصد كثيرة تحدّث عنها العلماء ، ومن هذه المقاصد : العناية ، والاهتمام ، والاختصاص ، وإفادة القصر ، والافتخار ، والتفاؤل ، والتشاؤم ، ولتعجيل المسرة والمساءة ، وإظهار التعظيم ، والتحقير ، وتقوية الحكم وتوكيده ، والمناسبة والسببية ، وغيرها من المقاصد التي يذكرها العلماء في كتبهم[٣٨]

ورد التقديم في النصوص القرآنية بعدة صيغ ، وقد ظهرت هذه الصيغ حسب كثرتها كالآتي :

١- تقديم الخبر على المبتدأ .
٢- تقديم المفعول به .
٣- تقديم الجار والمجرور
٤- تقديم خبر إنّ على اسمها .
٥- تقديم الفاعل على الفعل .
٦- تقديم الحال والتمييز.
٧- تقديم خبر كان .

من البيانات الأسلوبية المهيمنة على النصوص التي ظهر فيها تقديم الخبر: بنية تقديم الخبر على المبتدأ والتي ظهرت كثيراً في نصوص وصف قدرة الله وآياته في الكون ، فقد كان القصد من هذه البيانات الأسلوبية هو تخصيص الملك والقدرة وغيرها من الأمور الأخرى بالله سبحانه وتعالى ، وفي ذلك بيان لقدرته وسيطرته على الكون بأرضه وسماواته ، قال تعالى : ﴿ له ملكُ السمواتِ والأرض يُحيي ويميت وهو على كلِّ شيءٍ قدير ﴾ [الحديد :٢] فقد قدّم الجار والمجرور في الآية (لهُ ملك السمواتِ) ؛ لأنه يصف قدرة الله تعالى ، وأنّ الملك له ، ((تبيّن الآية الشريفة أنّ الملكية المطلقة لله سبحانه وتعالى بالنسبة للسموات والأرض، وهي ملكية حقيقية ، حيث بيده السماوات والأرض بكل خصوصياتها ، وشؤونها[٣٩]

ومن أمثلة التقديم والتأخير في السورة قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ ثُم استوى على العرش يعلمُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يخرجُ منها وما ينزلُ مِنَ السماءِ وما يعرُجُ فيها وهو معكم أينما كُنتم واللهُ بما تعملونَ بصير ﴾ [الحديد : ٤] فقدّم (بما تعملون)

على (بصير) ، ذلك لأنّها وردت بعد قوله (وهو معكم أينما كنتم) ، فقدّم ما يتعلق بهم وهو عملهم .

ومن أمثلة التقديم والتأخير قوله تعالى : ﴿ ومالكم ألاّ تنفقوا في سبيلِ اللهِ ولِلهِ ميراثُ السمواتِ والأرضِ لا يستوي مِنكُم مَن أنفقَ من قبلِ الفتحِ وقاتلَ أولئكَ أعظمُ درجَةً من الذينَ أنفقوا من بعدُ وقاتلوا وكلاً وعدَ اللهُ الحسنى واللهُ بما تعملونَ خبير ﴾ [الحديد :١٠] ففي هذه الآية الكريمة تقديم وتأخير في موضعين ، الموضع الأول قدّم الخبر (ولله) على المبتدأ (ميراثُ) ، وهذا التقديم له دلالة مفادها أن الملك كله لله ، والذي يرث هذا الوجود خالقه ، وخالقه هو الله ، فقدّم ماحقّه التقديم ، وهو لفظ الجلالة على كلمة ميراث ، ويبدو أن هذا التقديم لتخصيص ، وتوضيح أنّ الملك وارثه هو الله . وفي الموضع الثاني قدّم (وكلاً) وهي مفعول به أول للفعل (وعدَ) والمفعول الثاني كلمة (الحسنى) ، فهذا التقديم يفيد لفت الأنظار إلى أهمية الإنفاق سواء أكان قبل الفتح

أم بعده، ويعمّم أنّ الإنفاق ضروري ويستحق من الله الحسنى ، والحسنى هي الوعد من الله بالجنة . ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى : ﴿ والذينَ آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ أُولئكَ هُمُ الصديقون والشُهداءُ عند ربِّهِم لهُم أجرُهُمْ ونورُهُم والذينَ كفروا وكذّبوا بآياتِنا أولئكَ أصحابُ الجحيم ﴾ الحديد :١٩] (لهم) :خبر مقدّم والمبتدأ (أجرُهم) ، والفائدة في التقديم - والله أعلم - هو التخصيص ، أي تخصيص الأجر لهم ، لكن بشرط أن يؤمنوا بالله ورسله . حيث إنّ هؤلاء ملحقون بهم حكماً في الأجر والثواب وفي ما يترتب على هذا المقام من آثار ونتائج لأنّهم هم الصديقون والشهداء حقاً[٤٠]

ومن أمثلة التقديم قوله تعالى : ﴿ اعلموا أنما الحياةُ الدُنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثُر في الأموالِ والأولادِ كمثلِ غيثٍ أعجبَ الكُفارُ نباتَهُ ثم يهيجُ فتراهُ مصفراً ثمّ يكونُ حُطاماً وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من اللهِ ورضوانٌ وما الحياة الدُنيا إلاّ متاعُ الغرور ﴾ [الحديد :٢٠] فالخبر المقدّم (وفي الآخرة) ، والمبتدأ (عذابٌ) والتقديم لفائدة وعلة ، وهي أنّ الآخرة قد ينكرها المنكرون ، ويجحدها الجاحدون ، فجاءت للفت الأنظار إلى أهميتها والاستعداد لها ، وهناك وعيد بالعذاب الشديد للجاحدين . ومن الأمثلة الأخرى قوله سبحانه : ﴿ لقد أرسلنا رُسُلنا بالبيناتِ وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ وأنزلنا الحديدَ فيهِ باسٌ شديدٌ ومنافع للناس وليعْلَمَ اللهُ من يَنصُرُهُ ورُسُوله بالغيبِ إنّ اللهَ قويٌ عزيز ﴾ [الحديد :٢٥] فقدّم الخبر وهو شبه الجملة (فيه) على المبتدأ (بأس) قدّم كلمة (فيه)على البأس لما في الحديد من أهمية، وخاصية تأثيرها في الصناعة ، فالحديد يدخل في صناعة بعض المواد أو يدخل في صنع الآلات ، وجاء التقديم ملفتاً إلى خصوصية الحديد في السلم والحرب[٤١] ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيمَ وجعلنا في ذريتهما النبوةَ والكتابَ فمنهم مُهتدٍ وكثيرٌ منهُم فاسقون ﴾ [الحديد :٢٦]

(فمنهم) الخبر مقدّم على المبتدأ (مهتدٍ) ، وهذا التقديم لفائدة ، حيث قدّم المهتدين على الفاسقين ، وهذا لشرف لمن هو على طريق الهداية[٤٢] وكذلك في قوله تعالى : ﴿ لا يستوي منكم من أنفقَ مِن قبلِ الفتح وقاتلَ أولئك أعظمُ درجةً من الذينَ أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴾ [الحديد :١٠] ففي الآية بيان لتفاوت المنفقين باختلاف أحوالهم من السبق وقوة اليقين ، وفي تقديم التمييز(درجةً) على المفضل عليه (الذين أنفقوا من بعد) توكيد لأحقية المفضّل وتمكنّه في الفضل ، فالتعجيل بذكر التمييز ووصله بأفعل التفضيل تقوّيه للخبر بأنَّ المنفقين قبل الفتح والمقاتلين أرجح في التفاضل ، ولكلٍ الجنة بدليل قوله تعالى : ((وكُلاً وعدَ اللهُ الحُسنى)) [٤٣] .

المبحث الرابع : - أسلوبُ القَصْرِ

القصر: أحد الأساليب البلاغية التي يقتضيها المقام ، ويدعو إليها حال المخاطب ، وسنقوم بتعريفه لغة واصطلاحاً :

تعريفه في اللغة: القصر هو الحبس ، والقرآن الكريم هو المرجع اليقيني الذي تطمئن إليه القلوب ثقةً وصحةً ، فقد جاء في الكتاب الكريم : ﴿ وعندهُم قاصراتُ الطرفِ عِين ﴾ [الصافات :٤٨] ، وفي السورة التي تليها : ﴿ وعندهُم قاصراتُ الطرفِ أتراب ﴾ [ص :٥٢] ، وفي سورة الرحمن : ﴿ فيهُنَّ قاصراتُ الطرفِ لم يطمثْهُنَّ إنسٌ ولا جان ﴾[الرحمن :٥٦]، ففي هذه الآيات الثلاث وصف لنساء أهل الجنة بأنّهن يقصرنَ الطرف على أزواجهنَ ، فلا تتعدى نظراتهنَ غير أولئك الأزواج[٤٤] ((والقصر معناه الحبس والقيد ، وقصرت نفسي إلى أمر إذ لم أطمع إلى غيره

)) [٤٥] وقد عقد عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) باباً سماه في (دلائل الإعجاز) : باب القصر والاختصاص (٤٦)..

- وهذا المعنى اللغوي أصل وأساس المعنى الاصطلاحي الذي استقرّ عليه علماء البلاغة فيما بعد ، فلقد رأينا أنّ القصر لغة هو الحبس ، والنصوص القرآنية نستشف منها معنى التخصيص ، وهذا المعنى يرشدنا إلى المعنى الاصطلاحي - كما قلنا - فقد عرّف علماء البلاغة القصر: بأنّه تخصيص أمر بأمر ، بطريق مخصوص . وأيضاً القصر هو الحصر[٤٧] .

ومن أمثلة القصر في سورة الحديد قوله تعالى : ﴿ سبّحَ للهِ ما في السماوات والأرضَ وهو العزيزُ الحكيم ﴾ [الحديد :١] ، فالقصر في الآية في موضعين بين كلمتي (العزيز) و(الحكيم) ، فالعزيز الحق هو الله ، والحكيم بصدق هو جلّ وعلا ، فلا عزيز ولا حكيم إلاّ هو ، وغيره ليس بعزيز ولا بحكيم[٤٨] .

ومن الأمثلة الأخرى في السورة : ﴿ هو الأولُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكُلِّ شيءٍ عليم ﴾ [الحديد :٣] ، ففي الآية قصر وحصر أنّ الله هو الأول وإنّه هو الآخِر ، ولا أول قبله ولا آخِر بعده ، فهي صفات مقصورة لله سبحانه وتعالى ، لا ينازعه فيها أحد . وورد القصر في قوله : ﴿ والذينَ آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ أولئكَ هُمُ الصديقون والشهداءُ عند ربِّهم لهُم أجرُهم ونورُهم ﴾ [الحديد :١٩] فالقصر في الآية (أولئك هُمُ الصديقون) فقصر الصدق وحصره في الصديقين لأنّهم آمنوا بالله ورسوله ، أي هم الصديقون ، لأنّ الذين كفروا كذبوا الرسل[٤٩] .

وقد أوضحت الآية صنفاً من الناس ضمن عنوانين رئيسين هما :عنوان الصديقين وعنوان الشهداء ، ((والذينَ آمنوا باللهِ ورسُلِهِ أولئكَ هُمُ الصديقون والشهداء عند ربِّهِم)) فعند افتراض أنّ الذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون وأولئك هم الشهداء ، لابد من القول حينئذٍ : إنّ المراد من الإيمان المقرون بالعمل والمتطابق مع سلوك الإنسان وتصرفاته ، لا مجرد الالتزام القلبي الموجود في النفس الإنسانية من الاعتقاد بالله سبحانه وتعالى [٥٠]. . ومن الأمثلة الأخرى قوله تعالى : ﴿ اعلموا إنما الحياةُ الدُنيا لعِبٌ ولَهوٌ وزينةٌ وتفاخُرَ بينكُم وتكاثُرَ في الأموالِ والأولاد كمثلِ غيثٍ أعجبَ الكفارَ نباتُهُ ثمّ يهيجُ فتراهُ مُصفراً ثُمَّ يكونُ حُطاماً وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من اللهِ ورضوانٌ وما الحياةُ الدُنيا إلاّ متاعُ الغرور ﴾ [الحديد :٢٠]

وفي الآية موضعان للقصر هما : أولاً : في كلمة (إنّما) فقد قصرت هذه الكلمة مجموعة أمور منها الحياة الدنيا بأنّها زينة ولعب وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد .فالقصر هنا قصر الموصوف على الصفة قصراً إضافياً ، فقد قصر الحياة بأنّها لعب ولهو . أمّا الموضع الثاني للقصر في الآية الشريفة فهو في قوله تعالى : ((وما الحياةُ الدُنيا إلا متاعُ الغرور)) ، وهذا القصر هو تخصيص المبتدأ بالخبر بطريقة النفي ، فهو قصد موصوف على صفةٍ قصراً إضافياً[٥١]

ومن الأمثلة الأخرى قوله تعالى : ﴿ مآ أَصابَ من مُصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنفُسِكُم إلاّ في كتابٍ من قبلِ أن نبرأَها إنّ ذلكَ على اللهِ يسير ﴾ [الحديد :٢٢] فالقصر في الآية يلحظ في قوله تعالى : ((ولا في أنفسكم إلاّ في كتابٍ)) ، وهذا القصر حقيقي، فقد قصر المصيبة التي تصيب الإنسان أنّها في كتابٍ ' فالمقصور ((ولا في أنفسِكم)) والمقصور (إلاّ في كتابٍ) ، وهذا القصر قد ورد بطريقة النفي والاستثناء . ((إنّ كلّ مصيبة يراها الإنسان في حياته ، سواء أكانت في الأرض أم في نفسه ، فهي

مدوّنة ومسجّلة ومكتوبة في كتاب عند الله تبارك وتعالى ، وهي قضية قائمة وثابتة في حياة الإنسان لا يمكنه تغافلها)) [٥٢] ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى : ﴿ الذينَ يبخلونَ ويأمرونَ الناسَ بالبُخلِ ومَنْ يتولَّ فإنَّ الله هُو الغنيُ الحميد ﴾ [الحديد : ٢٤]

وقال تعالى : ((هو الغنيُ)) ، ولم يقل (غني) : لأنّه لاغني على الحقيقة سواه ، فعرّف الوصف ب(أل) ، وجاء بضمير الفصل للدلالة على الحصر ، وهذا الحصر إنّما هو قصر حقيقي ، فإنّ الغني على وجه الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى ، فإنما غنى البشر هو غنى وقتي ، أو مجازي يوشك أن يفارق المال بالموت أو بسبب آخر[٥٣]

المبحث الخامس :ـ أسلوب التكرار

التكرار :هو من مباحث علم المعاني ، كما عده ابن القيم في كتابه (الفوائد المشوق) ، وجعله القسم الحادي عشر ، ثم قال : والكلام فيه من الوجوه ما يأتي :

الأول فحقيقة التكرار أنّ التكرار أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه سواء كان اللفظ متفق المعنى أم المختلف ، أو يأتي بمعنى ثم يعيده[٥٤]

والتكرار قد ورد في سورة الحديد ، ولكن هذا التكرار ليس تزييناً أو تجميلاً ، ولكن لتوكيد أمر أو تأسيس معنى ، لأنّ كلام الله معجز بلفظه ومعناه[٥٥]

ومن أمثلة التكرار التي وردت في السورة : تكرار الضمير (هو) ، فقد ورد في الآية الأولى والثانية الضمير (هو) مرة واحدة ، وفي الآية الثالثة والرابعة مرتين ، وفي الآيات السادسة والتاسعة والثانية عشرة والرابعة والعشرين تكرار الضمير (هو) مرة واحدة ، أي ذكر الضمير (هو) في السورة عشر مرات ، وفي كل مرة له دلالة خاصة ، وكذلك لإيصال معنى محدّد خاص بالصورة .

وكذلك من الألفاظ التي تكررت في سورة الحديد مفردة (النور) فقد وردت في السورة في خمس مواضع :

١- ﴿ هو الذي يُنزلُ على عبدِهِ آياتٍ بيّناتٍ ليُخرِجَكُم منَ الظلماتِ إلى النور وإنَّ اللهَ بكُم لرؤوفٌ رحيم ﴾ [الحديد :٩]

٢- ﴿ يومَ ترى المؤمنين والمؤمناتِ يسعى نورُهم بينَ أيديهم وبأيمانِهم بُشراكُمُ اليومَ جناتٌ تجري من تحتها الأنهار ﴾ [الحديد :١٢]

٣ ﴿ يومَ يقولُ المنافقونَ والمنافقاتُ للذينَ آمنوا انظرونا نقتبس من نورِكُم ﴾ [الحديد :١٣]

٤ ﴿ والذينَ آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ أولئكَ هُمُ الصديقون والشهداءُ عندَربهم لهُم أجرُهُم ونورُهُم ﴾ [الحديد:١٩]

٥- ﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا اتقوا اللهَ وآمنوا برسولِهِ يُؤتِكُم كِفلَينِ من رحمَتِهِ ويجعلْ لكُم نوراً تمشونَ بهِ ﴾ [الحديد :٢٨]

وكذلك من الألفاظ التي تكررت : لفظتا (الظاهر - الباطن) :

١- ﴿ هو الأولُ والآخِرُ والظاهرُ والباطِنُ ﴾ [الحديد :٣]

٢- ﴿ باطِنُهُ فيهِ الرحمة وظاهِرُهُ من قِبلِهِ العذاب ﴾ [الحديد :١٣]

ومن الألفاظ الأخرى التي تكررت لفظتا (السموات والأرض)، وذلك في قوله تعالى :

١- ﴿ سبحَ للهِ ما في السمواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم ﴾ [الحديد :١]

٢- ﴿ لهُ ملكُ السمواتِ والأرضِ يُحيي ويُميت ﴾ [الحديد :٢]

٣- ﴿ هو الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ ﴾ [الحديد :٤]

٤- ﴿ لهُ مُلكُ السمواتِ والأرضَ وإلى اللهِ تُرجَعُ الأمور)) [الحديد :٥]

٥- ﴿ ومالَكُم ألَّا تنفقوا في سبيلِ اللهِ ولله ميراثُ

السمواتِ والأرض ﴾ [الحديد :١٠]
٦- ﴿ اعلموا أنّ اللهَ يحيي الأرضَ بعد موتِها قد بيّنا لكُمُ الآياتِ لعلكُم تعقلون ﴾ [الحديد :١٧]
٧- ﴿ سابِقوا إلى مغفرةٍ من ربِكُم وجنةٍ عَرْضُها كعرضِ السماءِ والأرضِ أُعدتْ للذين آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ ذلك فضلُ اللهِ يؤتيهِ من يشاءُ واللهُ ذو الفضلِ العظيم ﴾ [الحديد:٢١] وقد تكررت مفردة (يوم) في ثلاث آيات في السورة المباركة :
١ــ ﴿ يومَ ترى المؤمنين والمؤمناتِ يسعى نورُهُم بينَ أيديهم وبأيمانِهم بُشراكُمُ اليومَ جناتٌ ﴾ [الحيد١٢]
٢ــ ﴿ يومَ يقولُ المنافقونَ والمنافقاتُ للذينَ آمنوا انظرونا نقتبسْ مِنْ نورِكُم ... ﴾ [الحديد :١٣]
٣ــ ﴿ فاليومَ لا يُؤخَذُ مِنكُم فِديةٌ ولا منَ الذينَ كفروا ﴾ [الحديد:١٥]

ففي الآية الأولى جاءت مرتين ، مرة مع النور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، وهو مشهد فرح لحسن العاقبة ، ثم تأتي كلمة يوم مقترنة بالبشرى ، وكلمة (يوم) جاءت من غير لام التعريف في المرة الأولى ، وفي المرة الثانية جاءت معرفة لأنّ ذلك اليوم له بعد نفسي ومعنوي ، فجاءت مؤكدة لذلك اليوم[٥٦]

أمّا في الآيتين الثانية والثالثة فقد جاءت لتصوير حالة المنافقين في يوم القيامة ، ونلاحظ أنها قد جاءت غير معرفة في الآية الأولى ﴿ يومَ يقولُ ﴾ ، وجاءت معرفة في الآية الثانية ﴿ فاليومُ لا يُؤخَذُ ... ﴾ وذلك لتأكيد الحالة كما قلنا .

وعند قراءتنا للسورة المباركة نلاحظ أنّ هناك تكراراً لفظياً لكثير من المفردات ونرى أنّ كلّ مفردة إنّما جاء تكرارها لإيصال معنى محدد خاص بالسورة ، وقد توجد هذه الألفاظ في سور أخرى مشابهة ، إلاّ أنها تحتفظ بخواصها ودلالاتها في هذه السورة تحديداً لأنّ القرآن الكريم في ألفاظه يختلف عن الكلام العادي لناطقي العربية حيث يستطيع أي شخص حتى لو لم يكن يحفظ القرآن أن يفرّق بين القرآن وغيره من الكلام اللفظي لتكون كل سورة نسيجا خاصا بها حتى لو تشابهت مع بعض السور الأخرى في قليل أو كثير من المواضع ، وهذه قصة أخرى ومعجزة أخرى لإيصال معاني أخرى .

المبحث السادس : ــ أسلوبُ الحذفِ

الحذفُ :هو إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل ، وأمّا قول النحويين : الحذف لغير دليل ويسمّى اقتصاراً . ((وما ذكره القزويني في تلخيصه لـ (مفتاح السكاكي) قال: أمّا حذفه ، فالاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر ، أو تخييل العدول على أقوى الدليلين من العقل واللفظ ، كقوله : قال لي : كيف أنت ؟ قلتُ : عليلُ ، أو اختبار تنبيه السامع عند القرينة ، أو مقدار تنبهه ، أو إيهام صوته عن لسانك ، أو عكسه ، أو تأتي للإنكار لدى الحاجة ، أو تعينه ، أو ادعاء التعين ، أو نحو ذلك)) [٥٧] .

وقد ورد الحذف في سورة الحديد في مواضع كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ آمنوا باللهِ ورسُلِهِ وأنفقوا مّما جعلكم مُستخلَفينَ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبير ﴾ [الحديد :٧]

فقد قال تعالى : ﴿ وأنفَقُوا ﴾ بالفعل الماضي ولم يصرّح ما هو المُنفَق ، قد يكون من المال أو المواشي أو الزروع ، فحذفت هذه الأشياء ، وصرّح بالإنفاق فقد حذف مفعول أنفقوا للمبالغة في الحث على الإنفاق ، وعدم البخل بالمال[٥٨]

وقد ذكر السيد الحكيم (قدس سره) : أنَّ القرآن المجيد يؤكد على أنَّ الذي يؤمن بالله تعالى وينفق في سبيله يستحق الأجر بل الأجر الكبير كما عبّرت عنه الآية الكريمة ، وأنَّ هذا الأجر يكون مختصاً بهذا الصنف من الناس ، والقرآن في هذه الآية بفقراتها

الثلاث يريد إيضاح فكرة أنّ الإيمان بالله سبحانه وتعالى مطلوب بدرجة عالية تتجسد من خلال الإنفاق في سبيل الله ـــ إنفاق المال الذي استخلف فيه الإنسان من قبل الله سبحانه وتعالى ـــ والمؤمن المحقق لهذه الدرجة العالية من الإيمان له عند الله سبحانه وتعالى أجرٌ كبير[٥٩] ومن أمثلة الحذف قوله تعالى : ﴿ ومالكم ألّا تنفقوا في سبيلِ اللهِ ولله ميراثُ السمواتِ والأرضِ لا يستوي منكم من أنفقَ من قبلِ الفتحِ وقاتلَ ﴾ [الحديد :١٠]

في هذه الآية حذفان : الأول: في قوله تعالى : ﴿ تنفقوا في سبيلِ الله ﴾ ، أي : أي شيء لكم في ألّا تنفقوا ما هو قربة إلى الله تعالى .

والثاني :حذف ثاني الاستواء ، لأنّ الاستواء لا يتم إلّا بعد شيئين ، فلابد من حذف مضاف تقديره : لا يستوي منكم من أنفق قبل فتح مكة وقوة الإسلام[٦٠]

وكذلك ورد الحذف في قوله تعالى : ﴿ إنّ المصدقين والمصدقاتِ وأقرضوا اللهَ قرضاً حسناً يُضاعَفُ لهم ولهم أجرٌ كريم ﴾ [الحديد :١٨]

فقد حذف نائب الفاعل للفعل (يُضاعَفُ) ، والتقدير هو : يضاعف لهم الأجر ، فحذف الأجر ؛ وذلك لتبيّنه في تكملة الآية ، حيث قال تعالى : ((ولهم أجرٌ كريم)) .

المبحث السابع : ـ التصويرُ الفني

أولا: التشبيه: ــ

التشبيه: أحد مباحث علم البيان ، ومعناه كما جاء في لسان العرب (أنّ شبَّه والشَّبه والتشبيه : المثل والجمع أشباه ، وأشبهَ الشيء الشيء : ماثَلَهُ ، وأشبهتُ فلاناً وشابهتُهُ وأشبهَ عليّ وتشابه الشيئان واشتبها : أشبهَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبهُ ، وشبههُ إياه وشبههُ بهِ : مثلهُ ، والتشبيه : التمثيل)) [٦١]

كما قال الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة : ((إنّ الشيئين إذا شُبّه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين :

أحدهما : أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج إلى تأويل . والآخر : أن يكون الشبه محصلاً بضرب من التأويل)) [٦٢]

وأركان التشبيه هي : المشبه ، والمشبّه به ، وأداة التشبيه .

وقد ورد التشبيه في سورة الحديد في قوله تعالى : ﴿ اعلموا إنّما الحياةُ الدُنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثُرَ في الأموال والأولاد كمثلِ غيثٍ أعجبَ الكفارَ نباتُهُ فتراهُ مُصفراً ... ﴾ [الحديد :٢٠]

شبّه الحياة الدنيا بغيث أعجب الكفار نباته ، والكفار هم الكافرون بالله ، الجاحدون لنعمه ، والكفار هم الزراع ، ويجوز أن يكونوا بأعيانهم ، لأنّ الدنيا للكفار أشد إعجاباً . ومعنى الآية أنّ الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار ثم لا يلبث أن يصير هشيماً كأن لم يكن ، وإذا أعجب الزراع فهو في غاية الحسن[٦٣] وكذلك من أمثلة التشبيه في سورة الحديد قوله تعالى : ﴿ سابقوا إلى مغفرةٍ من ربِّكُم وجَنّةٍ عرْضُها كعرضِ السماءِ والأرضِ أُعدتْ للذينَ آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يشاء واللهُ ذو الفضلِ العظيم ﴾ [الحديد :٢١] فالمشبه : عرض الجنة ، والمشبّه به :عرض السماوات والأرض ، ووجه الشبه : الاتساع الكبير، وذكر العرض دون الطول ؛ لأنّ العرض أقل من الطول ، فإذا كان هذا عرضها ، فعُرِف أنّ طولها أبسط وأمدّ ، فليتخيل العقل سعة الجنة ، ويتبيّن من هذه السورة المشوّقة للجنة ، والصورة التي سبقتها محقّرة للدنيا تأكيد الصورة للمعنى وتجليته وتوضيحه في النفس[٦٤]

ثانياً: الاستعارة : ــ

الاستعارة: فنُ من فنون علم البيان ، وقد ذكرت هذه الكلمة عند القدماء ، فقد أوردها الجاحظ حينما قال

: ((الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقام غيره)) (٦٥) وجاء في لسان العرب : ((الاستعارة مأخوذة من العارية : أي نقل الشيء من شخص إلى آخر حتى تصبح من خصائص المعار إليه)) (٦٦) وعرّفها الجرجاني : ((أمّا الاستعارة فهي ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل ، والتشبيه قياس ، والقياس يجري فيما تعيه القلوب ، وتدركه العقول ، وتستفتي فيه الأفهام والأذهان ، لا الأسماع والآذان)) (٦٧)

ومن أمثلتها في سورة الحديد قوله تعالى : ﴿ هو الذي يُنَزِلَ على عبدِهِ آياتٍ بيناتٍ ليُخرجُكم منَ الظلماتِ إلى النور وإنَّ اللهَ بكُم لرؤوفٌ رحيم ﴾[الحديد :٩] فالظلمات تعني : الشرك ، والنور للإيمان والهداية ، فاستعار لفظ الظلمات للكفر والضلال ، والنور للإيمان والهداية . ومن أمثلة الاستعارة التمثيلية في سورة الحديد قوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يُقرضُ اللهَ قرضاً حَسَناً فيُضاعِفُهُ لهُ ولهُ أجرٌ كريم ﴾ [الحديد :١١] فقد شبّه الإنفاق في سبيل الله بإقراضه ثم حذف المشبّه به ، والجامع بينهما ، إعطاء الشيء بعوض ، ومعنى كونه حسناً خالصاً من شوائب الرياء ، ويبدو أنّ الاستعارة في الآية تصريحية تمثيلية ؛ لأنّ المشبّه به موجود ، وهو القرض ، وهو في نفس الوقت تمثيل لصورة الإنفاق على سبيل الاستعارة(٦٨) ومن أمثلة الاستعارة التصريحية قوله تعالى : ﴿ يومَ ترى المؤمنين والمؤمناتِ يسعى نورُهُم بينَ أيديهِم ﴾ [الحديد :١٢] فالاستعارة في الآية المباركة جاءت على سبيل الاستعارة التصريحية ، إذ صرّح بلفظ المشبّه به وهو نورهم الذي يسعى بين أيديهم ، وهذا حال السعداء ، وهو المستعار منه ، وقال سبحانه : ﴿ بين أيديهم ﴾ .

ثالثاً :الكناية : ــ

الكناية :نوع من أنواع علم البيان ، جاء في لسان العرب : ((وكنَّ أمرهُ عنهُ كناً : أخفاه ، واستَكَنَ الشيء : استتر)) (٦٩)

عرّف قدامة بن جعفر الكناية في كتابه نقد الشعر : ((وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني ، فلا يأتي باللفظ الدالّ على ذلك المعنى ، بل بلفظ يدلّ على معنى هو رَدْفَهُ وتابع له ، فإذا دلّ على التابع أبانَ عن المتبوع)) (٧٠) ومن أمثلة الكناية في سورة الحديد قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ ثُمَ استوى على العرشِ يعلمُ ما يَلجُ في الأرضِ وما يخرجُ منها وما ينزلُ من السماءِ وما يعرجُ فيها وهو معكم أينما كنتُم واللهُ بما تعملون بصير﴾ [الحديد :٤] من البنيات الكنائية الأسلوبية التي ظهرت في الآية :وصف قدرة الله تعالى وآياته ، بالكناية بالاستواء على العرش عن ملك الله وعظمته وجلاله وسيطرته على الكون بأجمعه . فلما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك ، ممّا يردف الملك فجعلوه كناية عن الملك ، فقالوا : استوى فلان على العرش ، يريدون : مَلَكَ ، وإن لم يقعد على السرير البتة . ومن أمثلة الكناية أيضاً قوله تعالى : ﴿ يُنادونهم ألم نكُن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتُم أنفُسكم وتربصتم وارتبتُم وغرَّتكُم الأماني حتى جاء أمرُ اللهِ وغرَّكم باللهِ الغرور ﴾ [الحديد :١٤] ((ألم نكن معكم)) استفهام تقريري استعمل كناية عن طلب المنافقين اللحاق بالمؤمنين ، والانضمام إليهم كما كانوا معهم في الدنيا يعملون أعمال المسلمين في الظاهر ، لكنهم يضمرون الكفر ، فالمعنى الذي يفهم من هذا الاستفهام طلب المنافقين للحاق بالمؤمنين في نيل ثوابهم ، وفي ((غرّتكُم الأماني)) كناية عن طول الأمل في الحياة ، وامتداد العمر حتى جاءهم الموت(٧١)

المبحث الثامن : ــ لُغةُ الحوار

أولاً : ــ الحوار لغةً واصطلاحاً : ــ

ورد لفظ الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع : ــ

١ــ قوله تعالى : ﴿ قالَ لهُ صاحِبُهُ وهو يُحاورُهُ ﴾ [الكهف :٣٧]

٢ــ قوله تعالى : ﴿ وكانَ لهُ ثمرٌ فقالَ لِصَاحِبِهِ وهو يُحاورُهُ أنا أكثرُ منكَ مالاً وأعزُ نفرا ﴾ [الكهف :٣٤]

٣ــ قوله تعالى : ﴿ واللهُ يسمعُ تحاوركما ﴾ [المجادلة :١]

((والحوار في اللغة : الرجوع عن الشيء وإلى الشيء ، حارَ إلى شيء وعنهُ حواراً ، ومحاراً ، ومحارةً وحُؤوراً : رجع عنه وإليه ، والحَور : الرجوع ، يُقال : حار بعد ماكار َ ، والحَور هو الرجوع من حال إلى حال)) [٧٢]

وجاء في المفردات : ((الحَوْر : التردد إمّا بالذات ، وإمّا بالفكر ، والمُحاورة : المراد من الكلام ، ومنه التحاور)) [٧٣]

أمّا الحوار في الاصطلاح كما عرّفه بعض الباحثين : فهو مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين أو أكثر ، حول موضوع معين محدّد بصورة متكافئة ، ويغلب عليه الهدوء في الوصول إلى الحق ، والبعد عن التعصب والخصومة . [٧٤]

وأركان الحوار هي :

١ــ طرفا الحوار

٢ــ القضية أو الذي تدور حوله مراجعة الكلام

٣ــ الهدف من الحوار

ثانياً : أهمية الحوار في وصف المشهد القرآني : ــ

الحوار في المشهد القرآني ليس عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه ، كما هو الشأن في العمال الأدبية ، بل إنّ الحوار وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة التي يستعملها لتحقيق أهدافه الأصيلة ، والهدف الأسمى هو إبلاغ الدعوة وتثبيتها ، مع أنّ القرآن الكريم بإعجازه جمع بين الغرض الديني والغرض الفني في آن واحد ، وجعل من الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني .

ثالثاً : بعض مشاهد الحوار في سورة الحديد وأطرافه : ــ

تعددت الحوارات في القرآن الكريم ، وكثرت مواضعها ومضامينها ، وسنعرض نموذجاً من نماذج الحوار فيما يتعلق بمشاهد يوم القيامة ،وللدلالة على أهمية الحوار في القرآن الكريم في إبراز الأغراض الدينية المختلفة التي يرمي إليها تثبيتها .فمن آيات خطاب الله تعالى لأهل الجنة في سورة الحديد المباركة قوله تعالى : ﴿ بشراكُمُ اليومَ جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها ذلك هو الفوزُ العظيم ﴾ [الحديد :١٢] ولم يورد القرآن الكريم جواباً أو رداً لهذه البشرى من أهل الجنة ، ويتبين من هذه الآية ــــ في حوار الله مع أهل الجنة ــــ أنّ حوار الله تعالى معهم ثابت في الكتاب والسُنة ، وهو من النعيم المعنوي الذي أعدّه الله لهم فيكلمهم الله ويبشّرهم الله ، ويناديهم منها ، ويسلّم عليهم ، أمّا أهل النار فهم يتمنون الخروج منها ،ويطلبون من الله الرجعة إلى الدنيا ليتداركوا أخطاءهم ، وذلك بالاعتذار والتضرّع ، ويحتمل أن تكون البشرى من الله من الله تعالى بشكل مباشر ، أو من الملائكة أو من الناس الذين وظّفوا لتبشير المؤمنين والمؤمنات ، أي أنّه لم يحدّد الشخصية التي يقوم بتبشيرهم ، ولكن لا يبعد أن تكون البشرى من المكلفين بالقيام بمثل هذه الأعمال[٧٥]

ومن مشاهد الحوار أيضاً قوله تعالى :

﴿ يومَ يقولُ المنافقون والمنافقاتُ للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نورِكُم قيلَ ارجعوا وراءكم

فالتمسوا نوراً فضُرِبَ بينهم بسورٍ لهُ بابٌ باطِنُهُ فيه الرحمة وظاهِرُهُ من قِبَلِهِ العذابَ ﴾ [الحديد :١٣]

تقدّم الآية الشريفة مشهداً آخر وصورة أخرى وهي : صورة المنافقين والمنافقات حيث أنّ هؤلاء لهم حالة وهيئة ومشهد معين في ذلك اليوم ، ويشتمل المشهد على عدة عناصر يمكن تلخيصها بثلاثة وهي :

١- حالة الظلمة التي يعيشها المنافقون والمنافقات ، وتفهم تلك الحالة من طلب المنافقين والمنافقات النور من المؤمنين ، حيث يطلبون منهم انتظارهم ليقتبسوا مقداراً من نورهم .

٢- أنّ المنافقين طلبوا من المؤمنين اقتباس النور منهم ، وبالتالي حاولوا معالجة الظلمة التي يعيشونها بهذه الطريقة الاستجدائية ، الذليلة ، المعبّرة عن حالة الذل والحاجة التي يشعر بها الإنسان يوم القيامة.

٣- العنصر الثالث يرتبط بموقف المؤمنين من هذا الطلب ((قيل ارجعوا وراءكم)) ، اختلف المفسرون في القائل ، فكان هناك عدة أراء :

أولهما: يرى أنّ الملائكة الموظفين للقيام بهذه المهمات .

ثانيهما: أنّ القائل هم جماعة من المؤمنين (الأعراف).

ثالثهما : هم المؤمنون الذين طلب منهم المنافقون ، واستدلّ القائل بهذا القول أنّ السياق يقتضي ذلك[٧٦]

وقد استعمل مفردة (يوم) للدلالة الزمنية على يوم القيامة .

ومن مشاهد الحوار أيضاً : ((يُنادونهم ألم نكُن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتُم أنفُسَكم وتربصتُم وارتبتم وغرّتكُم الأماني حتى جاءَ أمرُ اللهِ وغرَكُم باللهِ الغرور)) [الحديد :١٤]وفي هذه الحالة ينتقل المنافقون إلى دار الدنيا ، حيث يخاطبون المؤمنين : ((ألم نكُن معكم)) فهم يتصورون أنفسهم جزءاً من الجماعة الإسلامية ؛ لأنّهم عاشوا وسطها ، ضمن مجتمع المؤمنين ، لهم مالهم ، وعليهم ماعليهم ، ولذا يتصورون أنّ طبيعة العلاقات التي كانت تحكمهم ستستمر إلى الدار الآخرة[٧٧]

فهنا المخاطِب هم المؤمنون ، والمخاطَب هم الكافرون ، وكان الهدف من الحوار هو تحقير الجماعة الكافرة ، وتصوير حالة الذل التي هم عليها .

الخاتمة :

بعد أن أنعم الله علينا وتفضّل بجميل فضله وسوابغ آلائه بإتمام كتابة هذا البحث ، وبعد هذه الصحبة الشيقة ، والتأمّل المستمر ، والتدبر المتأني في كتاب الله العزيز ، نحمد الله عزّ ذكره ، وتقدست أسماؤه حمداً كثيراً لا انقطاع له على تيسير سبل البحث في القرآن الكريم وفي سورة الحديد بشكل خاص . فقد فتح لنا هذا البحث آفاقاً واسعة في تأمّل آيات الباري عزّ وجلّ وفهم الأسلوب القرآني المعجز الذي فاق كلّ أسلوب وكان لابد لنا من استخلاص أهم النتائج وهي كالآتي :

- إنّ الصورة القرآنية تمارس أثراً نفسياً ضاغطاً وفعّالاً على المتلقي ، فالقصد منها توجيهه الوجهة الصحيحة التي أراد الله تعالى له ، فهي وسيلة مهمة وفعّالة من وسائل الإفهام التي سعى الحق تعالى عن طريقها إلى هداية عباده وتقريبهم من الجنة ونعيمها وإبعادهم من الجحيم وعذابها .

- على المستوى الدلالي كان للصورة القرآنية في نصوص السرد الوصفي القرآني حضورها المتميز عبر التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز .

الهوامش

١ - جواهر البلاغة : أحمد بن إبراهيم الهاشمي : ٤٠
٢ - المصدر نفسه : ٤١
٣ - ينظر : جواهر البلاغة :٥٠
٤ - ينظر : في ظلال القرآن : ٣٤٤٣
٥ - ينظر : تفسير سورة الحديد : ٤٦
٦ - في ظلال القرآن : ٣٤٤٦ ــ ٣٤٤٧
٧ - معترك الأقران : السيوطي : ١/ ٤٢٥ .
٨ - مستويات السرد الوصفي القرآني : طلال خليفة : ٢٠٣
٩ - المصدر نفسه : ٢٠٤.
١٠ - ينظر : مستويات السرد الوصفي القرآني :٢١٠ .
١١ - ينظر : تفسير سورة الحديد :١٠٥.
١٢ - البلاغة فنونها وأفنانها : فضل حسن عباس : ١٢ /١١٥
١٣ - المصدر نفسه :١١٧ .
١٤ - ينظر : تفسير سورة الحديد : ٨٥ ــ ٨٦
١٥ - مستويات السرد الوصفي القرآني :١٨٩ .
١٦ - في فلسفة البلاغة العربية : حلمي علي مرزوق :٢٥١
١٧ - ينظر : المصدر نفسه :٢٥٢.
١٨ - الإيضاح في علوم البلاغة : القزويني : ٢٢٧
١٩ - ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها :١٥٣ .
٢٠ - سورة الحديد دراسة بلاغية : قاسم فتحي سليمان : ٢٩.
٢١ - الكشاف : الزمخشري : ٤/ ٦٤ .
٢٢ - ينظر : سورة الحديد دراسة بلاغية : ١٦٧.
٢٣ - النحو الوافي : عباس حسن : ٤ /٣٦٧ .
٢٤ - ينظر : سورة الحديد دراسة بلاغية :١٦٨ .
٢٥ - تفسير سورة الحديد :١٣٤ .
٢٦ - البلاغة فنونها وأفنانها : ١٧٣ .
٢٧ - ينظر : أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم : عبد الكريم محمود :١٤٧ .
٢٨ - ينظر : سورة الحديد دراسة بلاغية : ١٦٩.
٢٩ - التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور : ٣٧ /٣٧٠ .
٣٠ - إعراب القرآن : أبو جعفر النحاس : ٣٥٢/٣
٣١ - إعراب القرآن : أبو جعفر النحاس : ٣٥٢/٣
٣٢ - ينظر : تفسير سورة الحديد :١٣١ ــ ١٣٢
٣٣ - ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها : ١٦٧
٣٤ - ينظر : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : محمد محيي الدين :١١٥/٣
٣٥ - ينظر : علم القرآن الكريم : غانم قدوري الحمد :٨٣.

٣٦ - تفسير سورة الحديد :١٩٣ ــ١٩٤ .
٣٧ - مستويات السرد الوصفي / دراسة أسلوبية :٢٣١.
٣٨ - ينظر : المصدر نفسه :٢٣٢
٣٩ - تفسير سورة الحديد : ٤٥
٤٠ - المصدر نفسه : ١٤٣
٤١ - ينظر : سورة الحديد دراسة بلاغية :١٧٥ .
٤٢ - ينظر : المصدر نفسه :١٧٦
٤٣ - ينظر : ينظر : بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم : علي أبو القاسم عون :٢ /٧٢٧.
٤٤ - ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها :٣٧١
٤٥ - أساس البلاغة : الزمخشري :٣٦٧.
٤٦ - دلائل الإعجاز : الجرجاني :٢٥٢
٤٧ - ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها :٣٧١
٤٨ - ينظر : سورة الحديد دراسة بلاغية : ١٧٧
٤٩ - ينظر : سورة الحديد ـــ دراسة بلاغية :
٥٠ - ينظر: تفسير سورة الحديد :١٤٢ ــ ١٤٣
٥١ - ينظر: تفسير سورة الحديد :١٤٢ ــ ١٤٣
٥٢ - ينظر: تفسير سورة الحديد :١٦٢
٥٣ - ينظر : سورة الحديد ـــ دراسة بلاغية :١٧٨
٥٤ - ينظر : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ، ابن عقيم :١٦٣
٥٥ - ينظر : سورة الحديد ـــ دراسة بلاغية :١٧٢
٥٦ - ينظر : سورة الحديد ــ دراسة بلاغية :١٧٣
٥٧ - البلاغة ــ فنونها وأفنانها :١٦٧
٥٨ - ينظر : سورة الحديد ــ دراسة بلاغية :١٧٦
٥٩ - ينظر : تفسير سورة الحديد :٢٧ ــ ٧٣
٦٠ - ينظر : سورة الحديد ــ دراسة بلاغية : ١٧٦
٦١ - لسان العرب : ٥/ ٢٢
٦٢ - أسرار البلاغة ، الجرجاني : ٩٠
٦٣ - ينظر : سورة الحديد ــ دراسة بلاغية :١٧٠
٦٤ - ينظر : المسبحات في القرآن الكريم ـــ دراسة دلالية بيانية ، مريم محمود الشوبكي : ١٤٥
٦٥ - البيان والتبيين ، الجاحظ : ١/ ١٥٣
٦٦ - لسان العرب : ١/ ٤١٧
٦٧ - أسرار البلاغة :٢٠
٦٨ - ينظر : سورة الحديد ـــ دراسة بلاغية :١٧٩
٦٩ - لسان العرب : ٧/ ٧٤٦
٧٠ - نقد الشعر ، قدامة بن جعفر :١٥٥ ــ ١٥٦

٧١ - ينظر : المسبحات في القرآن الكريم : ١٧٨
٧٢ - لسان العرب : ٣٣٠
٧٣ - مفردات ألفاظ القرآن ، الأصفهاني : ٢٦٢
٧٤ - ينظر : الحوار ـــ آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ، يحيى بن محمد : ٦
٧٥ - ينظر : تفسير سورة الحديد : ٩٦
٧٦ - ينظر : المصدر نفسه :١٠٠
٧٧ - ينظر : المصدر نفسه : ١٠٤

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

١ ـ أساس البلاغة ،جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، ط :١ ،[١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م] .

٢ ـ أسرار البلاغة ، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني ، ط : ١ ، [١٤١٢هـ - ١٩٩١م] .

٣ - أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم - غرضه وإعرابه ، عبد الكريم محمود يوسف ، ط:١ ، [١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م] ، مطبعة الشام ، توزيع مكتبة الغزالي - دمشق شارع خالد بن الوليد

٤ - إعراب القرآن ، لأبي جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس ، [ج٣ /٣٥٢] ، د.ط ، د.ت .

٥ - بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، د. علي أبو القاسم عون ، ط:١ ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي - ليبيا ، ٢٠٠٦م .

٦ - البلاغة فنونها وأفنانها ، أ.د . فضل حسن عباس ، د.ط ، دار النفائس للنشر والتوزيع ، [١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م]

٧ - البيان والتبيين ، أبو عثمان الجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، تح : عبد السلام محمد ، القاهرة ، د. ت ، [١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م].

٨ - التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، د.ط ، دار سحنون للنشر - تونس ، د.ت .

٩ - التفسير الهادي للقرآن الكريم ، فضل السور وخواصها وأسباب النزول وتفسير المفردات ، الشيخ خليل رزق ، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط: ١ ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

١٠ - تفسير سورة الحديد ، شهيد المحراب آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم (قدس سره) ، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم (قدس سره) المطبعة العترة الطاهرة ، ط: ١، النجف الأشرف ، ٢٠١٦م .

١١ - جواهر البلاغة ـــ في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي الأزهري المصري (ت١٩٤٣م) ، الجزء الأول ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ـــ لبنان ، ط:١ ، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م .

١٢ - الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسُنة ، دار التربية والتراث ـــ مكة المكرمة ـــ رمادي للنشر ـــ الدمام . د.ط ، د.ت .

١٣ - دلائل الإعجاز في علم المعاني ، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، دار المعرفة ـــ بيروت، د.ط ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

١٤ - سورة الحديد ـــ دراسة بلاغية ، د. قاسم فتحي سليمان ، قسم اللغة العربية / كلية التربية / جامعة الموصل ، د.ط ، (٢٠٠٨م ـــ م٢٠٠٩) ، مجلة التربية والعلم ـــ المجلد . ستة (٢٠١٠م)

١٥ - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري ، تأليف محمد محيي الدين ، القاهرة ، دار الطلائع ، د.ط ، ٢٠٠٩م .

١٦ - علم القرآن الكريم ، د. غانم قدوري ، ط: ٤، مطبعة الميناء ـــ بغداد ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

١٧ - الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان شمس الدين أبو عبد الله بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف بابن القيم الجوزية (ت٧٠١هـ)، د.ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـــ لبنان ، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م .

١٨ - في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ط: ٦ ، المؤسسة القرآنية المتخصصة ـــ القاهرة ، ١٤٣٣هـ

/ ٢٠٠٣م .
١٩ - في فلسفة البلاغة العربية - علم المعاني ، د.حلمي مزوق ، د. ط ، كلية الآداب / جامعة طنطا ،١٩٩٩م.
٢٠ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :أبو القاسم جار الله محمد بن عمرو الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، د. ط ، د. ت ، دار الفكر .
٢١ - لسان العرب ، للعلامة ابن منظور (٦٣٠ - ٧١١هـ) ، د.ط ، د.ت ، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٢ - مختار الصحاح ، للشيخ الإمام محمد بن أبي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، د.ط ، دائرة المعاجم في مكتبة لبنان ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت - لبنان ، طبعة جديدة ١٩٩٥م .
٢٣ - المسبحات في القرآن الكريم - دراسة دلالية بيانية ، إعداد الطالبة مريم محمود مصطفى الشوبكي ، كلية الآداب والعلوم / جامعة الشرق الأوسط ، ٢٠١٠ - ٢٠١١م .
٢٤ - مستويات السرد الوصفي القرآني - دراسة أسلوبية ، طلال خليفة سليمان ، الرافد للمطبوعات - بغداد ، ط:١، د. ت.
٢٥ - معترك الأقران في إعجاز القرآن ، حافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) ، تح : علي محمد ، دار الفكر العربي ، (د.ط) ، (د. ت).
٢٦ - مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ) ،ط:٢ ، دار طليعة النور ، د. ت .
٢٧ - النحو الوافي ،عباس حسن ، ط:٣ ، دار المعارف ، مصر - القاهرة ، د.ت .
٢٨ - نقد الشعر ، قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) ، مكتبة الخانجي - القاهرة ، ط: ٣ ، د.ت .
٢٩ - الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) ، د .ط ، د.ت ، صيدا - بيروت